من الفلسفة الإسلامية

عينيـــة ابن سينا

أو

قصة الروح

للأستاذ زكي نجيب محمود

اذنُ مني ياصديق واستمع إلى هذه القصة الممتعة الرائعة التي يرويها ابن سينا عن الروح . وما أدراك ما الروح ؟ هذا السر العجيب الذي سرى واستكنّ بين أحنائك فلا تكاد تدري من أمره شيئاً ؛ وهل يداخلك شيء من الريب في أنك مزيج من مادة وروح ؟ فأما المادة فهي هذا اللحم والعظم ، وأما الروح فهي ذلك الفكر الرائع والخيال البارع وتلك الحركة المتوثبة الدافقة ، حتى إذا جاءك يوماً قضاؤك المحتوم ، انطلق كل من العنصرين الى سبيله ؛ فأنّى لك هذا السر المكنون ، وأيان يذهب بعد الموت ؟ ذلك ما يرويه ابن سينا في قصيدته وما أنا محدثك به الآن — قال ابن سينا :

هَبَطَتْ إليك من المحلّ الأرفعِ ورقاءُ ذاتُ تعزُّزٍ وتمنُّعِ

فقد كانت تعيش الروح أول أمرها مطلقة مجردة في الرفيق الأعلى ، ثم كُتِبَ عليها أن تهبط الى هذا الدرك الوضيع ؛ ولقد آثر فيلسوفنا الشاعر لفظ الهبوط على السقوط لأنها في رأيه لم تسقط الى هذا الحضيض من علٍ كما يسقط الحجر الجماد سقوطاً لاشعور فيه ، أو كمن ينتكس من أوج الجبل الى سفحه انتكاساً يقربه من الجماد المرغم على السير في طريق بعينها لا يملك لنفسه شيئاً ، إنما هبطت اليك الروح ؛ وفي لفظ الهبوط معنى الشعور والادراك ، من محلها الأرفع ، حيث تسبح العقول المجردة روحانيةً خالصةً لا تشوبها شائبة من مادة . . . ولكني عهدتك يا صديق عنيداً ملحاحاً لا ترضى بالقول يُرسَل إرسالاً ، بل تقتضي محدّثك الأمثلة يضربها توضيحاً لما يريد . وكأني بك تسائلني أو تسائل الشاعر : وكيف كان ذلك الهبوط ؟ فهو يجيب : إن شئت للروح في هبوطها مثلاً مما تعلم من ألوان الحركة ، فهي أشبه بالطير سابحةً في أجواز الفضاء ، حوّمةً صاعدة هابطة ، وماذا ترى بين الأشياء التي تتحرك بالارادة أشد شبهاً بالروح من الطير في خفته ولطف جوهره ، وفي هبوطه وصعوده ؟ لعمري لقد وُفّق فيلسوفنا ، بل لقد وفق أصحاب الفن منذ أقدم العصور في تصويرهم للملائكة أو مايتصل بالملائكة من كائنات روحانية بالجسوم المجنّحة إدراكاً منهم بهذه الرابطة القوية الصادقة بين خفة الأرواح ولطفها ، وبين رشاقة الطير ورقته . ولكن فيلسوفنا الشاعر لايرضيه تشبيه الروح في هبوطها بالطير على عمومه ، بل أجال بصره في عالم الطير لعله يجد بينها نوعاً خاصاً يكون أقربها صلة بالروح ، فما أسرع أن ساقه صدق شعوره وكمال إحساسه الى الحمائم ، وهل تستطيع أن تدلني على طير هو أشد من الوُرْق استئناساً ووداعة ، وأطول من الورق حنيناً وأصدق بكاء ؟ ! وإذن فما أشبه الروح بالورقاء ، فهي قد نشأت في عالم قدسيّ رفيع ، مجردة عن ملازمة المادة ومواصلتها ، فلما كان لها أن تهبط الى الجسد المادي ، طال ترددها واشتد تعززها وتمنعها ، وكانت فيما أحست من ألم كمن ينتحب

لما ابتغى يدَها السفاحُ أمهرَها — نهراً من الدم فوق الأرض أجراه
ما للخلافة ذنبٌ عند شانئها — قد يظلمُ السيفَ من خانته كفّاه
الحكمُ يَسلس باسم الدين جامحُه — ومن يَرُمْهُ بحدّ السيفِ أعياه
يارُبَّ مولًى له الأعناقُ خاضعةٌ — وراهبُ الدَّيْر باسم الدين مولاه
إني لأعتبرُ الإسلامَ جامعةً — للشرق لا محضَ دينٍ سنَّه الله
أرواحُنا تتلاقى فيه خافقةً — كالنحل إذ يتلاقى في خلاياه
دستورُه الوحيُ والمختارُ عاهلُه — والمسلمون وإن شتّوا رعاياه
لاهُمّ قد أصبحت أهواؤنا شيعاً — فامنن علينا براعٍ أنتَ ترضاه
راعٍ يُعيد إلى الإسلام سيرتَه — يَرْعى بنيه وعينُ الله ترعاه

(كوم حمادة) محمود غنيم

بالبكاء ، حنيناً الى عالمها ذاك ، ونفوراً وازوراراً من الاخلاط الجثمانية التي كتب لها أن تهبط اليها فتعيش بينها فترة من زمان محجوبةٌ عن كلِّ مقلة ناظرٍ وهي التي سَفَرَت ولم تتبرقع

ألا ما أعجب الروح ! إنها تلازمك أينما حللت ، لاتفارقك إلا يوم تكون أنت لست اياك ، فهي قريبة منك ، بل هي أنت ؛ تسري في دمائك ، وتدب في كل عضو من أعضائك ، ثم هي مع ذلك تمتنع عن النظر وتستعصي على الادراك ! فاذا ما حاولت رؤيتها تحجبت وأسدلت حول نفسها قناعاً صفيقا لاينفذ منه شعاع من بصر ، لماذا ؟ لأنها تذكر ماضيها الجليل ، يوم كانت في العالم الأقدس الرفيع ، فتأخذها العزة والكبرياء ، وتتعالى عن إدراك العيون ! وكيف تريدها على الظهور أمام مقلتيك وهما لم تُخلقا إلا لرؤية الأجساد المادية وحدها ؟ فأما هذه الماهية المجردة فهيهات أن تدركها بالنظر ؛ وكل محاولة منك في هذه السبيل صائرة حتما الى فشل وإفلاس ، ولكن لاتيأس ياصاحبي ، فثم سبيل لادراكها غير هذه المقل ، وغير هذه الحواس جميعاً ، انظر اليها بعين العقل تجدها واضحة سافرة كاشفة عن وجهها لا تسدل من دونه البراقع والستور ، فهي إن كانت تأبى أن تبدو للحواس فذلك لأنها تعلو بنفسها عن هذا الدرك الخسيس ، وهي إنما تتضح وتجلو لكل عاقل من الناس ، يبحث عنها بعقله في آثارها ودلائلها . إذن فالروح مع كمال خفائها وشدة غموضها عن العين ، يمكن إدراكها بالعقل لمن يريد معرفتها بالدليل والبرهان

وَصَلَتْ على كرهٍ اليك وربما كرهت فراقك وهي ذاتُ توجع

لقد علمت أن الروح قد اتصلت بهذا الهيكل الجثماني متأبية مقهورة مكرهة ، ولكنها من عجيب أمرها عادت فكرهت أن تفارق هذا الجسد الذي أرغمت على الحلول فيه أول الأمر إرغاماً ، أما كونها جاءت مكرهة فلأنها حين هبطت اليك كانت تعلم أنها إنما تتصل بكتلة من المادة . ليس بينها وبينها تآلف وتجانس ، إذ ليست هي في تجردها وروحانيتها شبيهة بالجسد في ماديته ، وهل تستطيع أن تظفر بأنس من رفيقك إذا لم يكن بينك وبينه تجانس في الصفات ؟ فان أُرغمْتَ على هذه المرافقة إرغاماً على ما بينكما من تنافر وتناكر ، فانت لاشك غاضب كاره ؛ وأما كونها تعود فتكره فراق الجسد فذلك لأنها قد تمكنت منه وسَرَت في أنحائه سريانا شديداً ، فتشبثت به تشبثاً قوياً متينا ليس انحلاله أو زواله هنة هينة ، وأنت تستطيع أن تلمس ذلك في نفسك إذا هممت بالانتحار ، فلن تجد من نفسك إقبالاً على الموت ورضى به واطمئنانا اليه ، ومعنى ذلك أن روحك قد استطابت مُقامَها الجديد بعد نفور ، ولكن حذار أن يذهب بك الظن إلى أنها قد ارتبطت بالجسد ارتباطا بلغ من القوة والمتانة حد الاندماج ، بحيث إذا زال الجسد زالت الروح تبعاً له ، كلا ، إنما ترتبط الروح بالجسد ارتباطاً يقع بين القوة الشديدة والضعف الشديد ، فلا هو الى القوة التي تدمجها فيه ادماجاً ، ولا هو الى الضعف الذي يُيَسِّر لها سبيل الفرار . ولكني لم أحدثك بعد عن علة كرهها لفراق الجسد ، وقد جاءته مكرهة أول الأمر . أما ذلك فلأنها رأت أنها تستطيع أن تتخذ من هذا الجسد أداة للخير والفضيلة ، لقد كانت في حياتها المطلقة الأولى خالية من الصفات الفاضلة الايجابية جميعا ، وهاهي ذي قد رأت في الحواس سبيلا قويمة تحصل بها من الأخلاق والعلم حظا موفورا ، وإذن فاتصالها بالجسد قد جعلها عارفةً بعد سذاجة وجهل ، متحركةً بعد خمول وسكون ، فهل تدهش بعد هذا إذا رأيت الروح جازعة فازعة حين يدنو منها الأجل المحتوم الذي يفصل بينها وبين زميلها انفصالاً ليس بعده من لقاء ؟ وهل تعجب إذا رأيتها حين اتصالها بالجسد تدافع جهدها عنه لتدفع ما يتهدَّدُه من علة أو مرض ، وتحرص وسعها أن يكون موفور الحظ من السلامة والعافية ؟

أَنِفَتْ وما أَنِسَتْ فلما واصلت

أَلِفَتْ مجاورةَ الخرابِ البلقع

إذن لقد هبطت الروح الى هذا الهيكل مُعْرِضَةً عنه مزدريةً له صلفاً منها وتيها ، وحقَّ لها ذلك ، فهي خالدة لاتخضع للفناء ، وهو وضيع بتعاوره الكون والفساد ، لهذ أنفت منه ولم تأنس له بل استكبرت عليه وأبت أن تنزل بنفسها الى حضيضه الأسفل ، وظل النفور بينهما حيناً من الدهر لم يَطُلْ ، حتى عرفت أنه أداة قويمة صالحة لتحصيل الفضيلة والخير ، عندئذ أَنِسَتْ به ورضيت بالاقامة معه في إخاء وائتلاف ، وما هي إلا أن وضح أمامها الطريق وقام الدليل قاطعاً على أنها ستحقق بالجسد مرادها من الكمال ، فقويت العلاقة واشتدت اللازمة على الرغم من علمها أن هذا الذي ترافقه وتزامله لن يلبث حتى ينقلب خراباً بلقعاً لا غناء فيه ، إذ هو صائر إلى الفناء بعد حين

يقصر أو يطول . ولعلك تلاحظ أن فيلسوفنا قد عبر هنا عن العلاقة بينهما بلفظ المجاورة قاصداً متعمداً ، لأنه أراد لك أن تعلم أنها ليست من الجسد بمثابة الأبصار من العين مثلا ، يكادان يكونان شيئاً واحداً ، ولكنها منه كالملاّح من سفينته يديرها ويدبر أمرها . ثم هو بعدُ يستطيع أن يستقل بوجوده بعيداً عنها ، فهي علاقة تجاور لا علاقة دمج وإدغام

وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ومنازلا بفراقها لم تقنع

نعم : لقد اطمأنت إلى الجسد بعد صدّ ونفور ، وأنست به بعد وحشة ، وبلغ بها الاطمئنان والانس حداً نسيت معه تلك العهود والمواثيق التى أُخِذَتْ عليها أيام كانت فى عالمها الرفيع السامى ، وركنت إلى غير جنسها ركوناً لا تحب معه الفراق ، وقد بلغ منها ذلك النسيان لمنازلها الأولى حد الغلوّ والاسراف ، فهي لم تقنع بمجرد فراقها لعالمها الأول ، بل زادت عليه عشقها للعالم الجديد ، وهنا كأنما تحس من فيلسوفنا إشفاقاً على الروح أن تكون قد رضيت بالأدنى عن الأعلى لتغيّرٍ فى صفاتها وتحوّلٍ فى إدراكها وفسادٍ فى طبيعتها

حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها من ميم مركزها بذات الأجرع

علقت بها ثاءُ الثقيل فأصبحت بين المعالم والطلول الخُضَّع

يا ويح النفس ! والله لكم أخشى أن تكون الروح قد مازجت المادة حتى فسدت عنصراً ، فهي لم تكد تهبط من أبعد الذرى لتمس عالم المادة حتى علقت به وهو بعدُ لا يأتلف إلا من الخسيس الكثيف الذى يَنْدُرُ أن يكون سبيلاً إلى الكمال (ذات الأجرع هى المادة الأرضية الكثيفة أى البدن) ، نعم ، لم تكد تهبط الروح ، وتدب فى مادة الجسد حتى علقت بها هذه المادة الجثمانية وأحلّتها بين أجزائها وطىّ ثناياها ، بين معالم الجسد وأطلاله الخربة المتداعية . بين عظامه وغضاريفه ولحمه وشحمه ، التى تخضع للفناء وتؤول للبطلان وتنقلب إلى الدثور . ولكن لعلها قد دبت بين أجزاء الجسد الفانية لا لتجرى مجراها . ولكن لتستخدمها فى تحصيل المعارف والفضائل

تبكى إذا ذكرت عهوداً بالحمى بمدامع تهمى ولم تتقطع

لقد حُمّ القضاء ووقعت الواقعة ، فقد حان للروح حينُ فراقها وجاء أجلُها ، وها هى ذى قد فصلت عن رفيقها وخلفته وراءها رماداً وتراباً ، فهى إذا ما ألْقَتْ بنظرها إلى هذه الأوصال المفككة ، وإلى هذا البيت المعمور ، وقد دب فيه الخراب والدمار ، عظم عليها الوَجْد وجلّ فى عينها الخطب ، وقد تتزاحم أمامها ذكريات الماضى أيام كانت تنعم بزمالة هذا البدن المحطوم فى شتى ألوان النعيم ، فتتفجع وتتوجع وتحزن وتأسى ، فان كانت روحاً خيرة فاضلةً كانت فجيعتُها أن افتقدتْ أداةَ الخير والفضيلة إذ افتقدت الجسد ، وإن كانت روحاً شريرة خبيثة مستهترة كانت حسرتُها أن سُلبت وسيلة اللذة والمتاع — ألا وهى الجسد كذلك

وتظل ساجعة على الدّمن التى درست بتكرار الرياح الأربع

ولا تحسبن الروح بعد فراقها للجسد قد غفلت عنه وأنسيته بل انها تتردد اليه الحين بعد الحين ، فتقف بازائه باكية نادبة ، وقد أبت قريحةُ الشاعر الفيلسوف إلا أن تصور الروحَ ، وقد جاءت تنشُدُ أطلال الجسد فتجد منه بقية باقية يهيّج منظرُها ما كان كامناً فيها من شجون ، وإنما تعظم الحسرة إذا بقيت من منازل الأحباب آثارها لما تثيره فى النفس من ألم وحنين ، أما تلك الرياح الأربع التى ما فتئت تهب على مادة الجسد حتى درستها درساً ، فيغلب أن تكون الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة التى لا تنفك ، تعتور الصخور الصلدة حتى تفتتها هشيما تذروه الرياح هنا وهناك ، فتنطمس المعالم الأولى انطماساً تشوه بعده وتتنكر ، ولستُ بحاجة الى أن ألاحظ لك يا صديقى أن فى هذا البيت تصريحاً من الفيلسوف بخلود الروح بعد الموت ، فهى باقية خالدة تروح وتغدو ، ويستحيل عليها التحلل والفناء

إذ عاقها الشَّرَكُ الكثيف وصدَّها

قفصٌ عن الأوج الفسيح المربَع

ولكن ليت شعرى فيم بقاء الروح بين هذه الأطلال الدارسة باكيةً نادبةً ، وماذا يعوقها أن تعلو وتصعد إلى حيث العقولُ المجردة فى الملأ الرفيع ؟ أليس فى ذلك فكاك لها من شوائب المادة ونقائصها ، وتحرر من قيود الحس وأصفاده الثقيلة الباهظة إلى حيث تسبح فى تلك الأرجاء الفسيحة تتسرح فيها تسرحاً مطلقاً لا يصدها ضيق ولا تزاحم ؟ لعمرى إنها الدنيا التى تجتذبها كما يجتذب الشركُ سوانحَ الطير الطليق عما يُلقى فيه من حَب ، فهذه اللذة والشهوة والمتاع كفيلة أن تغرى النفس إغراء يكون لها غلا ووثاقاً ، وليس شركُ الدنيا الذى تطوّقُ

به النفوسَ تطويقاً من ذلك الضرْب الهين الخفيف الذى تحطم قضبانُه وسلاسـله فى سهولةٍ ويسر ولـكنه شركٌ عاتٍ قوى كثيفٌ يحوك حول السجين آلافاً من الحبائل والحوائل التى يتعذر منهـا الخلاص إن لم يستحل وإذن فهذا الجسد للروح بمثابة القفص للطير القنيص ، لا تستطيع أن تغادره أو تجاوز حدوده إلا إذا أراد لها ذلك واضعها ، ولـكنه قفص على ما ضرب به حولها من سياج منيع مُشبَّكُ القضبان فيه من النوافذ مايسمح للسجينة أن ترسـل خلالها الفكر والبصر إلى أرجاء الـكون ، وما تلك المنافذ التى تتسلل منها الروح إلى أنحاء الوجود إلا الحواس من بصر وسمع وما اليهما ، وإلا العقل تتقصى به أطراف الأرض والسماء

حتى إذا قَرُبَ المسيرُ إلى الحِمَى ودنا الرحيلُ إلى الفضاء الأوسع
وغدت مُفارقةً لـكل مُخلَّفٍ عنها حليفَ التُّرْبِ غيرِ مُشيَّع

هكذا ارتبطت الروح بالجسد ارتباطاً مكيناً . حتى إذا دنت ساعة الرحيل وحان أجل الفراق لهذا البدن إلى حيث تنطلق فى الفضاء الرحب الفسيح ، وأخذت تقطع مابينه وبينها من صلات وعلائق وأسـبـاب ، وهو تلك الـكتلة المادية المخلفة المعطلة المطروحة بعـد المفارقة تحت أطباق الثرى دون أن يُلتفت اليه أويعنى بشأنه احتقاراً له وازدراء ، بعد أن خلَّفته الروح وخلعته ، تقول إذا دنت ساعة الرحيل وفارقت الروح جسدها . . .

هجعتْ وقد كُشف الغطاءُ فأبصرتْ
ماليس يُدركُ بالعيون الهُجَّع

عندئذ يزول عنها حجاب البدن فينكشف الغطاء فتدرك ما كان يستحيل عليها إدراكه أيام اتصالها به ، ذلك لأن الأرواح المتلبسة بالأجساد إنما تـكون رقوداً هجعاً أو كالرقود الهجع لأنها إذ تـكون عالقة بالأبدان تـكون محجوبة عن الادراك الذى تُحصِّله النفوس المجردة كما يحتجب النائم عن إدراك ما يدركه اليقظان ، إذن فالروح عندما تُلقى الجسدَ وتطرحه تـكون كأنما تـكشف عن بصيرتها غطاء طالما حال بينها وبين مطالعة الرفيق الأعلى بمايغمسها فيه من عَرَضٍ مادى زائل باطل مصيرُه إلى فناء ، أما إذا فارقت البدن فقد خلُصت من أغلالها وانحسر عن بصرها الغشاءُ فأبصرت أسرار الحق صافية خالصة وانـكشف لها الغيب وأيقنت أنها كانت أثناء حياتها مع الجسد غافلةً راقدةً وقد تنبهت الآن واستيقظت

وغدت تغرِّد فوق ذِروة شاهق والعلمُ يرفع كل من لم يُرفع

فاذا كانت قدنفضت عن نفسها ما كان لحقها من غفلة ورقاد ، إذن فقد تجردت من قيود المـادة وأصفادها وغدت عنصراً عقلياً صرفاً لاتشوبه شائبة من كدورة أو نقص ، مبرأةً عن حاجات البدن التى تجذبها إلى أسفل ، واتصلت بالعالم الروحانى المجرد ، فأحست بالنشوة والسـعادة وغمرت سروراً لما ظفرت به بذلك الاتصال ؛ ولعلك هنا تحتج على الفيلسوف وتعترض حديثه ، فما لهذه الأرواح قد صـعدت إلى العالم الأقدس ولم تلبث حول أجسادها مُحوِّمة باكيةً راثية إلفَها الحبيب ، فهو يجيبك إنما ترتفع إلى هذه الذروة الشاهقة السامية ، تلـك الأرواح التى كسبت من العلم صدراً محموداً وحظاً موفوراً ، وإن العلم لجدٌ كفيل أن يرفع إلى حالق ما من شأنه أن يكون فى الحضيض الأخس فضلاً عما يكون له بطبيعته اتصالٌ وقربى بالعالم الأشرف الرفيع

فلأى شئ أُهبطت من شامخ عالٍ إلى قعر الحضيض الأوضع

ولـكن قف ؛ أأنت محدثى ياصاح فيم هذا العناء كله إن كان مصير الروح فى نهاية أمرها أن تعود إلى حيث بدأت السـير ؟ فلقد زعمت لى أنها هبطت من علٍ فحلت بالبدن حيناً من الدهر ثم أخذت سبيلها آخر الشوط إلى مستقرها الذى صـدرت عنه وفاضت منه ؛ ما هى الحـكمة الباعثة للنفس أن تهبط من ذراها هاوية إلى الدرك الأسفل.؟ !

إن كان أهبطها الالـه لحـكمة طويت عن الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها لا شك ضربة لازب لتكون سامعـة لما لم تسمع

هكذا تساءل صاحبى فى دهشـة وعجب ، قال : إن كان الله جل وعلا قد أهبطها لحـكمة خفيت عن بصائرنا ، واستعصت على إدراكنا ، بل طويت عمن بلغ منامن الحـكمة أروعها وأبعدها غوراً ، فلا ريب فى أن الله تعالى إنما ضرب الهبوط على النفس ضرباً وألزمها به إلزاماً لعلها فى هذا العالم الأرضىّ تُوَفَّقُ الى اكتساب المعرفة ، واستيفاء أسباب الكمال ، إذ كانت فى أول أمرها جاهلة ساذجة غافلة ، فأهبطها لتسمع مالم تكن قد سمعت به من العلوم والأخلاق ؛ وسبيلها الى ذلك هى الحواس والعقل

وتعود عالمـة بكل خفيَّة فى العالَمين فخرقها لم يُرقع

فالمهم إن كانت هذه رسالتها التى هبطت من أجلها ، أعنى أن

تعود بعد زيارتها الى الدنيا عالمة بالاسرار الخفية فى العالمين ــ عالم الغيب والشهادة ــ فلا سبيل الى تحقيق ما جاءت من أجله ؛ لأنها مهما حصلت من فروع العلم وجوانب الأخلاق ؛ ومهما أسرفت فى التحصيل فهى قاصرة مقصرة ، وكيف سبيلها الى ذلك والعلوم لاتنتهى عند حد ، وحتى إن أمكن تحصيلها فلا تكفى لها مدة الحياة على قصرها ؛ ولكن ليكن هذا فليس الفشل فيما نظن مما ينتقص من نبل الغاية المقصودة ويحط من شرف الوسائل المؤدية الى تلك الغاية

قال صاحبي : لقد زعمت أو زعم فيلسوفك ابن سينا أن الروح إنما هبطت فَسَرَتْ فى البدن ففارقته وعادت أدراجها ، والله لايفعل شيئاً إلا لحكمة ، إذا كان ذلك لم يكن لهواً ولا عبثاً ؛ فلأى شىء هبطت من الأعلى الى الأدنى ، واعتاضت الباقى بالفانى ؟ قلت : إنها هبطت فتعلقت بالجثمان لتتخذه وسيلة الى الكمال على شرط أن تكون من أصحاب الفضيلة والخير . قال : وإن كانت الروح من الملأ الأعلى فكيف تكون ناقصة وقد حدثتنى فى صدر الحديث أن ذلك الملأ مجردٌ مطلقٌ كاملٌ كمالاً محضا ، وأنه خير خالص ، كما حدثتنى الى جانب ذلك أن عالمنا هذا شر ــ أو على أكثر تقدير مزيج بين الخير والشر فما قولك الآن إن الروح قد هبطت من ملأها الأعلى الى هذه الأرض تنشد عن طريقه الكمال ؟ ! وهل يكون الشر وسيلة الى الخير والكمال ؟ لعمرى لو كانت العناصر المجردة لا يتم كمالها إلا اذا اتصلت بالمادة فما أوجب أن يهبط عالم الأرواح كله ليمتزج بالأرض ومادتها ؟ قلت : جوابك يا صاحبى فى هذا البيت الآتى :

وهى التى قطع الزمانُ طريقَها حتى لقد غَرُبَتْ بغير المطلع

فقد كان مراد النفس وأملها أن تبلغ حد الكمال بما ترتسم فى صفحتها من الصور العقلية ، لكن الزمان لم يمهلها وا أسفاه ! فقطع عليها السبيل وصدها عما كانت تسير نحوه ، وذلك باهلاكه للبدن وهو أداتها فى تحقق رغبتها ، ولكنها إلا تكن قد ظفرت بكل شىء ، فهى لم تفقد كل شىء ، لأنها لم تغرب — حين غربت — ساذجةً جاهلة كما أشرقت أول الأمر بل عرفت الكمال وعرفت النعيم الذى يكون لها لو بلغت هذا الكمال ، وكفاها بهذه المعرفة حافزاً قد يدفعها إلى متابعة السير يوماً آخر

فكأنه برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع
أنعم برد جواب ما أنا فاحص عنه فنار العلم ذات تشعشع

ولكن فيلسوفنا الشاعر يعود فيوافقك يا صديقى إلى حد كبير ، ان النفس عند فراقها للبدن تكون فى الحقيقة كأنها لم تُفِدْ شيئاً وكأنها لم تصحب البدن قط ، وما أسرع ما انقضى زمن إقامتها فيه ، فقد اختفت سريعا كالبرق الخاطف ، وعادت كأن لم تكن بالأمس شيئاً مذكوراً . وإنه ليختم حديثه معك بحَفْزِك وإثارة الطُّلَعَة فى نفسك لعلك تمعن فى التفكير والنظر لترى جوابا لهذا السؤال المُرْبك : فيم هبوطُ الروح للوصول الى كمالها ، ثم فصلُها قبل أن تصل ؟ ! قال محدثى : انى لأرى شبها قويا بين هذه القصة التى قصصتها علىَّ عن ابن سينا وبين ما رويته لى بالأمس عن فلسفة أفلاطون من أن النفس كانت تسبح فى عالم المُثُل صافيةً سعيدة مفكرة ، ثم حلَّت بالجسم وتعلقت به ، فاذا وافت الانسان منيتُه عادت من حيث أتت ، قلت نعم ولعَل لى معك فى هذا حديثا آخر

زكى نجيب محمود

صدر حديثاً :

أحاديث حبّى

تأليف الآنسة :

سهير القلماوى

ويطلب من لجنة التاليف والترجمة والنشر

بشارع الكردامى رقم ٩ (عابدين) بمصر

ومن مجلة الرسالة

ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ٦ قروش عدا أجرة البريد